

النشر غير القصصيّ

obeykandl.com

تمهيد

سنعالج في الفصول التالية التأليف الذي اتخذ النثر وسيلة للتعبير ، ولكنه خارج عن موضوعات القصص ، والمسرح . ومن السهل أن يسلم المرء بأن القصص والمسرح من صميم التأليف الأدبي ، ولكننا إذا خرجنا عنهما وجدنا أن ميدان الكتابة بالنثر لا يزال ميداناً فسيحاً هائلاً ، وأنه ليس من المعقول أن يدخل هذا كله في نطاق الأدب ، الذي يراد منه على الأقل أن يجمع بين جمال الفكرة وجمال الأسلوب . وكثير منه عرض زائل لا يلبث أن يغتاله النسيان ، وأكثره لم يحاول كاتبه أن يتجه به وجهة أدبية . بل لم يخطر له مثل هذا الخاطر . يتبقى لدينا بعد ذلك قدر عظيم من النثر ، في غير الميدان القصصي ، يشمل على صفات – سواء في معناه أو أسلوبه – تضمن له البقاء إلى الأجيال المقبلة . ولعل هذه الأجيال أن ترى فيه صوراً وشكولاً أدبية لا نكاد نتبينها اليوم ، لأننا شديداً التأثر بالموضوعات التي تعالجها تلك المؤلفات .

لقد اشتمل النثر الأدبي في أمريكا في غضون القرن التاسع عشر على فرعين في غير ميدان القصص اشتهر التأليف فيهما ، وهما « الرسائل » و « السير » . وكانت الكتابة في كلا هذين الفرعين على الرغم من معالجتها لموضوعات ذات بال تقرأ ، لالما اشتملت عليه من الآراء فقط ، بل ولما امتازت به من جمال الأسلوب أيضاً . ولا مفر من التسليم بأن كتاب القرن التاسع عشر كانوا يتعمدون أن تمتاز كتابتهم بالعبارة الأدبية الأنيقة ، وتبدلت الحال نوعاً ما في القرن العشرين ، وأصبح كتاب الرسائل – إذا استثنينا القليل منهم – منصرفين كل الانصراف إلى عرض الدعوى ، والإدلاء بالحجج الدامغة ، وتفنيد مزاعم الخصوم ، وكثير منهم أصبح ينفر من كلمة « رسائل » ويؤثر أن يسميها « مقالات » ؛ لأن هذه التسمية لا تلزمه أن يتكلف الصيغ الأدبية في كتابته . ومع هذا فقد اشتهر في هذا القرن كتاب في التاريخ والفلسفة والاقتصاد ، استطاعوا أن يكتسبوا تقديراً أوسع لفهمهم وأسلوبهم الأدبي ، ولكن هذه المهارة الأدبية لا تعتبر الناحية الأساسية

في تأليفهم . وهكذا لا يعد معظم مؤلفي النثر غير القصصي في القرن العشرين في أمريكا من « الأدباء » بالمعنى المألوف ، إذا قورنوا بكتاب القرن التاسع عشر .

وليس معنى هذا أن النثر غير القصصي يحتل من الأدب الأمريكي اليوم مكاناً أقل خطراً مما كان يحتله في القرن الماضي ، ومؤلفات ساندبرج عن حياة لنكولن ، وفريمان عن روبرت لي ، وكتاب هنري آدمس الخالد عن سيرته ، تكفي لدحض هذه الفكرة . ولكن معناه أن العنصر الأدبي الصرف في القرن الحاضر قد غلب عليه التفكير الفلسفي أو السياسي أو التاريخي أو الاجتماعي . وهذه المؤلفات السياسية والفلسفية والاجتماعية تحتل مكاناً رفيعاً في الإنتاج العقلي في هذا القرن . فهي لذلك جديرة أن تحتل مكاناً واضحاً في كل مؤلف يصف الحياة الأدبية والإنتاج الأدبي بجميع أنواعه في الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد قسمنا الموضوع إلى ثلاثة فصول : الأول عن التأليف الفلسفي ، والثاني عن التأليف الأدبي لرجال الصحافة والنشر ، والثالث عن التأليف الاجتماعي . وقد عالج كل مؤلف موضوعه بالطريقة التي رأى أنها المثلى .

١ - الفلسفة في أمريكا

١٩٥٠ - ١٩٠٠

ماي برودبك

قال أحد الكتاب المحدثين : « إن التأليف الأدبي في جملته يميل إلى معالجة الحقائق لا المظاهر ، أي إنه يعنى بحقائق الأشياء لا بمظهرها الخارجي ، ومع أن الفلسفة تختلف في وسائلها وأهدافها عن الأدب ، فإن في هذه الحملة وصفاً لا بأس به لطبيعة الفلسفة أيضاً ، والفيلسوف لا يكفيه أن يظهر الفرق بين الحقائق والمظاهر كما يفعل الأديب ، بل يهيم أيضاً أن يوضح لنا كيف يهديننا التفكير للتمييز بين هذين الأمرين وكيف نستطيع أيضاً من غير تفكير وبحكم الغريزة أن نحترس من المظاهر الخداعة .

ويحدثنا الكاتب نفسه في مكان آخر بأن في الأمريكيين من يظن أن

هنالك تعارضاً بين حقائق الوجود وبين الفكر، وأن من واجب المرء أن ينحاز إلى جانب الحقائق «^(١)». وفي هاتين العبارتين استطاع أن يلخص لنا تضارب الآراء الذى كان يتنازع الكتاب والأدباء؛ ولكن هذا النزاع لم يكن مقصوداً على الأدباء؛ فان فلاسفة أمريكا قد ورثوا النظريات التقليدية عن الجليل السابق؛ فنشأت فلسفة القرن العشرين كثورة على تلك الفلسفة التى كانت تنادى. بأن كل شىء مرده إلى أمر واحد: وهذا الواحد هو الفكر Mind.

١ - المثالية أو الفكرية

كانت الفلسفة فى أمريكا إلى أواخر القرن الماضى، بمثابة الخادم لعلوم الدين. وكان الذى يتولى تدريس الفلسفة فى المدرسة قسيساً أهم ما يعنيه أن يبني بدرسه هذا حصناً منيعاً ضد الإلحاد فى هذا العهد «الذى انتشر فيه الفساد». وقد نشأ فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر جيل جديد من الفلاسفة درسوا فى القارة الأوربية، ولم يكونوا من رجال الدين، وتولوا مناصب تدريس الفلسفة فى المدارس والجامعات الأمريكية، ومع ذلك كان جل همهم أن يثبتوا الصلة الوثيقة بين الإنسان وربه. يسوغوا للناس أحكام الإله وسنن الكون. فكانوا يشرحون للطلاب مذهب المثالية المطلقة Absolute Idealism، وهو أحدث وأفخم مذهب فلسفى يحاول الدفاع المنظم عن فكرة الألوهية، والأبدية، والخلود. وكان لا بد من أن يبعث المذهب الايديالى فى صورة قوية جديدة عنيفة، بعد الذى منيت به المسيحية من الهزيمة بسبب مقاومتها العنيفة لمذهب داروين أولاً، ثم استسلامها لدعاة هذا المذهب بعد ذلك. فكان هنالك حاجة لمذهب جديد يشرح الظواهر الكونية والنفسية فى أسلوب لا يخالف القواعد الأساسية للدين، وإن خالفها فى بعض التفاصيل. وهذا المذهب هو الفكرية أو المثالية المطلقة. وكلمة «المثالية» - ويقابلها كلمة الواقعية realism - لها فى كلام الناس معنى يخالف معناها فى الفلسفة. فهى فى الاصطلاح العام تدل على نوع من السلوك

(١) المؤلف هو Lionel Trilling فى كتابه The Liberal Imagination، نشر

سنة ١٩٥٠ ص ٢٠٩ و ١٠

ينشد صاحبه مثلاً أعلى ويوجه أعماله وأقواله نحو هذا المثال ، ويتصل بذلك عبارة « المثل العليا » والتمسك بها ، وما شاكل ذلك من العبارات . أما فى الفلسفة فإن مذهب المثالية له معنى آخر ليس له بالمعنى العام سوى صلة ضعيفة جداً . لذلك نرى الفلاسفة فى البلاد العربية يفضلون استخدام كلمة أخرى وهى « المذهب الفكرى » ويسمون أنصار هذا المذهب باسم « الفكرين » بدلا من كلمة المثاليين .

وترتكز الفلسفة الفكرية على قاعدة أساسية وهى : أن مادة العالم كله قوامها الفكر ، فكل شىء فى العالم لا وجود له إلا فى الفكر ، وكل شىء موجود لأنه قائم فى الفكر . وهكذا تكون العبرة فى وجود هذا العالم لا ترجع إلى أنه كائن موجود بطبعه ، بل إلى أن الفكر البشرى يتصور أنه موجود . وقد عبر الشاعر الإيرلندى بيتس Yeats عن ذلك بقوله فى قصيدة « الدم والقمر » :

أما أستاذنا بركلي (١) ، ذو المواهب الربانية ، فقد أثبت أن كل شىء أضغاث أحلام . وأن كل هذا العالم الفخم الضخم ، برغم كل ما يبدو من ضخامته وفخامته سيختفى فى لحظة ، إذا ما تغير تفكير الإنسان أو تحول . . .

وقد حاول المذهب الجديد ، وهو « الفكرية المطلقة » أن يتجنب ناحية التطرف فى المذهب الفكرى الأول الذى كان ينادى بأن كل شىء موجود فقط لأنى أتصوره ، ولا وجود له إذا لم أتصوره بفكرى ؛ أما المذهب الجديد فيفترض وجود « العقل المطلق » أو « الفكر المطلق » ، وهى عبارة فلسفية ترمز للإله ؛ وهذا « العقل المطلق » أبدى أزلى ، والعالم الحقيقى هو ما يراه هذا العقل المطلق .

ويمتاز مذهب « الفكرية المطلقة » على الايديالية السابقة بأنه مذهب منظم قد شرحت فصوله وأجزاؤه شرحاً وافياً ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن أكثر دعائه كانوا فلاسفة محترفين مثل الأستاذ رويس Josiah Royce أستاذ الفلسفة فى هارفرد ، كما يرجع إلى تأثير الفيلسوف الألمانى هيغل Hegel . كما لقي

(١) يسخر الشاعر من المذهب الايديالى الأول الذى كان من أكبر دعائه الأسقف Berkley الفيلسوف الانجليزى المشهور . وقد كانت الفلسفة الأمريكية الحديثة بمثابة ثورة على هذا المذهب .

المذهب تأييداً كبيراً من الثورة على العلم التي شنها طائفة من الكتاب الألمان وتبعهم في ذلك كولردج Coleridge وإمرسن Emerson ؛ فقد رأى الكتاب أن من السخف ، الذى يبعث على التدهور الخلقى والأدبى ، أن يكون العلم - كما صوره العلماء - مجرد ذرات تتلاحم وتتلاطم فى الفضاء من غير معنى ولا مغزى .

والمذهب الجديد بصور لنا « العقل المطلق » أو الإله بأنه ليس خالقاً منفصلاً عن العالم ، بل هو الروح الذى ينتظم الكون وهو مادته أيضاً . وحقائق الكون ووقائعه هى آراء وأفكار للعقل المطلق . وغايته التى يرى إليها هى أن يتجلى أو يتحقق إلى الأبد ، فى نظام منطقى سليم ، أى طبقاً لخطة دقيقة مرسومة .

هذه هى الفكرة الأساسية لهذا المذهب الفلسفى الذى كان له النفوذ الأكبر فى الولايات المتحدة فى الربع الأخير من القرن الماضى ؛ ولكنه لم يسد إلا فترة قصيرة من الزمن ، برغم ما كان يبدو من مظاهر السمو والفخامة فى تعاليمه . فلقد كان فى الواقع عبارة عن فلسفة انتقالية ما بين الروحية الدينية الخالصة ، وبين المادية التى أخذت تطفئ على العقل الأمريكى . كانت آراؤه وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء ، ولذلك لم ترض هذا الفريق أو ذاك . فلم يلبث أن لقي معارضة شديدة فى الأوساط الدينية ، التى كانت ترى أن الله قد خلق العالم والكائنات فعلاً ، لا أنها مجرد فكرة خطرت له . وفوق ذلك كان فى المذهب الايديالى (الفكرى) من آراء الحلوليين القدماء ما يكفى لتنفير أنصار الدين منه ، وكذلك كانت تعاليم هذا المذهب ، فيما يتعلق بالغض من قيمة العلم ومن النظريات العلمية ، مما يتنافى مع النهضة العلمية ، التى كانت على أشد قوتها فى ذلك الوقت . لذلك تعرض هذا المذهب لهجوم شديد ، من جهتين مختلفتين فى ميدان الفلسفة : الهجوم الأول من أنصار المذهب العملى أو البرجماتى Pragmatism ، والثانى من أصحاب المذهب الواقعى Realism . ولم يدرك أنصار هذين المذهبين ما بينهما من التناقض الهائل ، إلا بعد أن انهزم العدو المشترك ؛ ثم ثارت بينهما حرب باردة لا تزال رياحها القارصة تهب علينا إلى اليوم من آن لآن .

ومهما يكن من شيء فإن الثورة على المذهب الإيديالى كان لا بد لها من أداة تحركها وتبني الظروف لقيامها ؛ وكانت هذه الأداة هي وليم جيمس .

ب - وليم جيمس

ليس من السهل أن نحدد مكان وليم جيمس بين الفلاسفة أو بين علماء النفس ، وهنالك قول مأثور بأن طبيعة فلسفة أى إنسان تتوقف على طبيعة هذا الإنسان . ولعل خير مثل تبدو فيه صحة هذا القول بوضوح هو وليم جيمس . ولقد كان من أخص طباع جيمس ضرب من القلق وعدم الثبات ، يفسره هو بأن نفسه تنزع أحياناً نزعة مادية جبرية تشاؤمية ، وأحياناً تنجيه وجهة تفاؤلية خيالية ؛ وهذا تفسير لا يخلو من الوجاهة . فلقد كان جيمس بعضه فيلسوف وبعضه شاعر . وبينما يخلق أحد شطريه فى الفضاء ويمرح فى سماء الخيال ، إذا بالشطرن الآخر يتأمل ويمعن فى التأمل . ولا حرج على الرجل فى أن يكون شاعراً وفيلسوفاً ، ولكن ليس من السهل عليه أن يخلط الفلسفة بالشعر ، لأن لغة الفلسفة غير لغة الشعر .

فلننظر الآن إلى جيمس وكيف تسنى له أن يكون منشئاً لمذهبين فلسفيين متفاوتين كل التفاوت :

لا شك أن أهم عنصر فى التكوين العقلى لوليم جيمس هو إيمانه بحرية الإرادة . لذلك كان أكبر شيء أثاره على المذهب الفكرى ، هو الرأى القائل بالقوة الجبرية التى تسيطر وتهيمن وتسير الكون . غير أن جيمس الذى كانت تمتزج فى نفسه روح الشاعر والفيلسوف ، كان أيضاً يخضع لسلطانتين : الأولى سلطان المذهب التجريبي Empiricist على قسوته وصرامته ، والثانى سلطان الجو الدينى الرقيق الرحيم الذى كان يسود منزل والده ، فقد كان والده هنرى جيمس من الصوفيين أتباع مذهب سويدنبرج Swedenborg ، وقد احتفظ ابنه جيمس دائماً بشيء من العطف على التجارب الدينية . وقد أضاف إلى ذلك إيماناً بمذهب داروين بمثابة حلقة اتصال بين هذه الاتجاهات جميعاً . وبفضل هذه النزعات والاستعدادات المختلفة ، اتخذت فلسفته وجهتين : وهما المذهب

العملى Pnagmatism والمذهب التجريبي الأساسى Radical Empiricism . وقد أدرك جيمس أن كلا من المذهبين مستقل عن الآخر ولا يعتمد عليه فى شىء . ولكنه لم يستطع أن يدرك فى أى وقت من الأوقات أنهما فى الحقيقة متناقضان .

فى عام ١٨٨٤ نشر جيمس رسالته المسماة « حيرة المذهب التجري » The Dilemma of Determinism ، وضمها أول حملة عنيفة على أصحاب المذهب الفكرى Idealism ، ولا شك أنها كانت تمثل الخطوة الأولى نحو تأليف نظرية الفلسفة العملية . لقد كان جيمس ينفر أشد النفر من نظرية الإيدياليين التى كانت تسوى بين الخير والشر وتجعلها عبارة عن مظاهر كونية إلهية لا مفر منها . فقد كان معنى ذلك فى نظره أحد أمرين : إما أن الشر ضرورة قاسية لا محيص منها ؛ أو أن ما نسميه شراً هو فى الحقيقة من الخير ، إذا نظرنا إليه نظرة أبدية أزلية . وفى كلتا الحالتين تصبح الحياة ضرباً من العبث ، خالية من كل تبعه على المرء . وذلك ما لم يستطع جيمس أن يقبله ، فأخذ يعمل لمحاربته .

وقد أحس جيمس بأنه لا يستطيع أن يؤمن بالحياة وبالمستقبل ، ما لم يكن فى العالم عنصر حر طليق : بعيد عن الجبرية ، وليس من السهل تقديره أو التكهّن به . وهذا العنصر الحر فى نظره هو إرادة الإنسان ، التى لا يمكن التكهّن بما قد تنجبه إليه ؛ لأن كثيراً من الأعمال والأطوار يتوقف على الصدفة chance . ومع أن جيمس كان يعلم أنه لا يستطيع أن يثبت وجود الصدفة ، فانه برغم ذلك كان يميل إلى الإيمان بعالم قوامه الصدفة a universe of chance ، وقد أحس السعادة لإيمانه بهذه الفكرة ، ثم أخذ يدعو الناس لأن يشاركوه رأيه هذا .

وفى عام ١٨٩٦ أخرج جيمس رسالة أخرى عنوانها « تحكم الإرادة فى العقيدة : The Will to Believe » يشرح فيها الأسباب التى دعت إلى المناداة بجبرية الإرادة ؛ وفيها خطأ خطوة أخرى فى بناء فلسفته ؛ ومن أهم نظرياته هنا دعواه بأن الحق كل الحق هو أن نؤمن بالرأى الذى يتفق مع رغباتنا وسعادتنا . فوجود الإله مثلا أمر وثيق الصلة بسعادة الإنسان واطمئنانه الروحى ؛ والوسائل

العلمية لا تساعد على الحكم فى هذا الأمر . لهذا يرجع فى إثباته إلى آثاره فى الفرد - فإذا كان الإيمان به يجلب للإنسان السعادة فهو حق ، وإلا فهو باطل ، وقد كان إيمان جيمس بالله على هذا النحو .

لا شك أن هذا التفكير كان تمهيداً مباشراً للبرجماتية ، ومن الممكن أن نعد سنة ١٨٩٨ السنة التى بدأت فيها تلك الحركة . فقد استخدم جيمس هذه الكلمة للمرة الأولى فى محاضرة ألقاها أمام الاتحاد الفلسفى بجامعة كاليفورنيا ، وزعم أنه نقلها عن صديقه شارلس ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce . وهو من أساتذة المنطق والفلسفة ، قام بالتدريس أحياناً فى جامعة هارفرد ؛ ولكنه قضى معظم حياته فى عزلة بعيداً عن الأوساط الأكاديمية ؛ وقد كان له فضل كبير فى نشر آراء جديدة فى المنطق ، ولكن جيمس لم يعن إلا بناحية أخرى من نشاطه . فقد نشر فى سنة ١٨٧٨ رسالة عنوانها : « كيف نجعل أفكارنا واضحة؟ » اقترح فيها وسيلة نتبين بهامعنى أفكارنا بصورة لا لبس فيها ولا غموض . وذلك بأن نتأكد من أن الفكرة لها نتائج أو آثار عملية .

وقصد بقوله « آثار عملية » النتائج التى تدرك بالحس . ورأى أن هذا المقياس يضمن لنا ثبات المعانى ، الذى بدونه يصبح التخاطب مستحيلًا ؛ كما أنه يساعد على الفصل فى كثير من المنازعات العقيمة . وضرب لذلك مثلاً بالخمر التى تستخدم فى القداس ، ويرى البعض أنها رمز لدم المسيح ، ويراها آخرون أنها دم المسيح ، ولكن كلا الفريقين يرى أن خواصها الظاهرة واحدة ، ولذلك لا يرى بيرس أن بينهما اختلافًا .

تناول جيمس نظرية المعانى هذه كما شرحها بيرس ، وأخذ يستخدمها بتصرف فى أغراضه الخاصة ، وقال إنها يجب أن تطبق تطبيقاً أوسع ؛ ولذلك فإنه لا يكتفى بالآثار الحسية للدلالة على معنى الأشياء . بل يضيف إلى ذلك ما تبعته هذه الأشياء فى النفوس من عاطفة ، وبذلك أدخل العامل الشخصى وجعل له أهمية لم تكن تخطر لبيرس ببال . ومن أجل ذلك اضطر بيرس إلى أن يعلن أن فلسفته بعيدة كل البعد عن البرجماتية التى ينادى بها جيمس .

وانتقل بعد ذلك جيمس إلى القضية التى تنص على أن الحق هو ما كان له

أثر عملي أو نفع : « فالشئ نافع لأنه حق ، وهو حق لأنه نافع » . وقد شرح هذه الفكرة شرحاً مطولاً في كتابه عن البرجماتية . واحتج بأن الامتحان الصحيح لكل فكرة هو أثرها ونتائجها في المستقبل . فإذا كانت هذه النتائج نافعة فالفكرة صحيحة . أما الحقائق التي لا تمت بصلة إلى تجارب الإنسان أو إلى رغباته وحاجاته فإنها لم تكن تعنى جيمس ، ولذلك لم يكن لها وجود .

غير أن جيمس لم يجد بدأً - بعد أن أعلن أن الفكرة تكون صحيحة إذا كانت لها نتائج عملية - من أن يسلم بأن الفكرة التي لها نتائج عملية لا بد أن تكون صحيحة . ومن هنا نشأت فلسفته الأخرى المسماة بالذهب التجريبي الأساسى Radical Empiricism وقد اشتملت هذه الفلسفة على مجهودات جيمس في معالجة المسائل الميتافيزيقية ، لا الأمور العملية ، ويصف فيها طبيعة العقل والمادة والعلاقة بين العقل والمادة ، وبين الظواهر والحقائق .

وقد أمكن لجيمس أن يبرز الفلاسفة الإنجليز على كثرة ما كتبه في الفلسفة التجريبية . وذلك لأن آراءهم كانت تتجه دائماً إلى التحليل دون الربط ، وإلى تحطيم الكون إلى عناصر متباينة ، دون أن يظهروا الصلات التي تربط بين هذه العناصر . فكانوا كمن يعنى بالأصوات المختلفة دون أن يلاحظ ما بينها من نغم منسجم . وقد سمى جيمس فلسفته التجريبية « أساسية » لأنها ترى أن العلاقة بين العناصر أمر واقع كالعناصر نفسها سواء بسواء . وقد استطاع جيمس بمهارة عجيبة أن يطبق نظريته في العناصر على طبيعة العقل أيضاً ، كما أوضح ذلك في مؤلفه الكبير عن « التجريبية الأساسية Radical Empiricism » ولنتقل الآن إلى فيلسوف آخر كان لآرائه اتصال كبير بآراء جيمس وهو :

ج - ألفريد نورث هويتهد Alfred North Whitehead

كان ألفرد نورث هويتهد رياضياً كبيراً ، وقد ألف بالاشتراك مع برتراند رسل كتاب « مبادئ الرياضيات Principia Mathematica » وهو من أعظم المؤلفات الرياضية الحديثة . وهو إنجليزى النشأة ، ولكنه عين أستاذاً في جامعة هارفرد في عام ١٩٢٤ بعد أن تجاوز الستين ، وبقي في أمريكا إلى أن توفي

عام ١٩٤٧ ، وقد نشرت جميع مؤلفاته الفلسفية فى أمريكا لأنه لم يشتغل بالفلسفة إلا فى المرحلة الأخيرة من حياته .

ومن الصعب تتبع آراء هويتهد الفلسفية ، لأنها ممثلة بعبارات جديدة لمعان قديمة ، ومفردات قديمة تصف معانى جديدة ؛ ومع ذلك فإن كتابه « العلم والعالم الجديد Science and the Modern World » انتشر بين مختلف الطبقات ، وذلك لأن بعض فصول هذا الكتاب قد كتب بأسلوب سهل ، وتناول موضوعات تجتذب عامة القراء .

وقد جرى هويتهد كلاً من برجسون وجيمس فى بعض آرائهما ، ولكنه أضاف غير قليل من عنده . وكان شديد الاعتراض على الفكرة التى أوحى بها نيوتن وصور بها العالم بأنه كون جامد كأنه كرة البليارد ، يتألف من جزيئات صغيرة يحكمها قانون الجاذبية . وقال إن عالماً بهذه الصورة « يصبح شيئاً جامداً لا صوت فيه ، ولا رائحة ولا لون ، وإنما هو مجرد تحريك سريع للمادة ، بلا قصد ولا هدف ولا معنى . وفكرة العالم النيوتونى فى نظره ، هى فوق ذلك صورة لا يمكن قبوطاً أو تصديقها . والأسلوب العلمى كثيراً ما يشوه الطبيعة . وليس من الضرورى أن ندفع هذا الثمن لكى نصل إلى فهم دقيق للمسائل . فكل شىء فى العالم يجرى وراء غرض ، وكل حادث عبارة عن نشاط يحقق غاية ، وليس هذا نشاطاً أعمى يسعى إلى خلق عالم جديد من غير نظام حسب نظرية برجسون عن « الدافع الحيوى élan vital » بل هو نشاط يخلق عالماً رتيباً يسوده النظام والانسجام ؛ ولذلك افترض هويتهد لهذا النشاط كله ينبوعاً واحداً ؛ وهذا ينبوع سماه « الإله » .

د — جون ديوى John Dewey

اشتهر جون ديوى فى ميادين عديدة ، خلاف الميدان الفلسفى . ونبغ فى كثير منها ، فقد ضرب بسهم فى علم الاجتماع والسياسة ، والتاريخ والنقد الأدبى ، والأخلاق ، واشتهر بوجه خاص بنظرياته التربوية ، ومع ذلك فإن هذه الجهود الجبارة على اختلاف الميادين التى اتجهت إليها ، كانت كلها متأثرة بمذهب الفلسفى

المسمى المذهب الآلى . Instrumentalism ؛ وهو المذهب الذى ولده ديوى من المذهب العملى « البرجمائى » .

وقد اتخذت فلسفة ديوى منذ البداية موقفاً خاصاً من الإنسان والطبيعة والمجتمع . فرأت أن الإنسان وكل ما عمله الإنسان ، ما هو إلا جزء من النظام الطبيعى ، يمكن دراسته مثل جميع الأشياء الأخرى ، دون حاجة إلى الالتجاء إلى المعجزات والحوارق لتفسير أعمال الإنسان وسننه وطرائقه ، وفى هذه الناحية اتجهت الفلسفة الآلية وجهة طبيعية ؛ كذلك اتجهت وجهة بشرية أو إنسانية ، لأنها آمنت بأن الإنسان هو المقياس الذى يقاس به كل شىء . فالخير ما كان ملائماً للإنسان والشر ما كان ضاراً به . والوجهة الثالثة لفلسفة ديوى هى الوجهة التحسينية melioristic وذلك فيما يتصل بالمجتمع ، وبالحرص الشديد على الإصلاح الاجتماعى فى مختلف نواحيه ، حتى تصبح حياة الناس على الأرض فى تحسن مطرد ؛ ومن الناحية السياسية كان المذهب الآلى ينجح إلى الديمقراطية الحرة . ومع أن كثيراً من هذه الآراء تبدو لنا بديهية ، قد لا كتبها الألسن وليس فيها من الجدة شىء . فلا بد لنا أن نذكر أن ديوى ولد سنة ١٨٥٩ ، وأن الفضل فى أن هذه الآراء أصبحت مما يسلم به أكثر الناس ، يرجع معظمه إلى جون ديوى وإلى أتباعه الكثيرين .

وهناك ناحية أخرى لفلسفة ديوى حاول فيها أن يشرح نظريته فى المعرفة Knowledge ، والقيم values ، والواقع reality ، وهذه النظريات كان لها النفوذ الأكبر فى نشر فلسفته . وقد كان ديوى شديد التأثير بداروين وأسلوبه العلمى فى دراساته البيولوجية ، ولذلك طغت هذه الأساليب على تفكيره ، وكان لها مكان بارز فى تأليفه ، وكان شديد الإيمان بنظريات النشوء ، التى تفسر الظاهرات وتعالج نشأتها وتطورها ووظيفتها ؛ والأسلوب المتبع فى هذه الدراسات هو الوحيد الذى يمكن استخدامه لمعالجة كل مسألة من المسائل فى كل علم وكل موضوع . ولا شك أن ديوى كان متأثراً بما حققه العلم فى مختلف النواحي . فاقنع بأنه يستطيع أن يضع ثقته فى الأسلوب العلمى فى معالجة الشؤون البشرية ، بحيث يتحقق للإنسان عن هذا الطريق حياة أسعد وأرغد .

وقد رأى ديوى أن العقل البشرى قد تكوّن أثناء محاولات الإنسان الطويلة لكي يلائم بين نفسه وبين البيئة التي يعيش فيها . فكان الإنسان يلجأ لعقله ، كلما صادفته مشكلة يريد حلها أو رغبة يريد تحقيقها . هذه هي وظيفة العقل ، ويكون الحكم عليه بقدر أدائه لهذه الوظيفة . ويذهب ديوى إلى أن هذه الوظيفة القديمة العملية للعقل البشرى هي الوظيفة الوحيدة . وليس للعقل وظيفة أخرى . أما ما يحاوله العقل من إدراكات فكرية فإن هذه ليست من العلم ولا من العرفان في شيء . لأن العرفان بطبعه شيء عملي ، لا ينطوي على مجرد التأمل والتفكير البحت ، فالمعرفة أداة أو آلة لتأدية عمل . ومن هنا سميت فلسفته بالمذهب الآلى . ونظراً إلى أن ديوى قد اتجه بفلسفته وجهة عملية بقوة لا نكاد نجد لها نظيراً عند غيره من المفكرين ، لهذا نراه كثيراً ما يزدري الفلاسفة ، ويحتقر الفلسفة بوجه عام ، وإن كان أكثر احتقاره موجهاً إلى الفلسفة التقليدية . وقد قال برتراند رسل في ذلك : « إن ازدياء الفلسفة ، إذا اشتد ونما حتى أصبح مجهوداً فكرياً منظماً ، يصبح في ذاته فلسفة ؛ وهو بلا شك الفلسفة التي تدعى في أمريكا الفلسفة الآلية . . . »

هذه خلاصة مقتضبة لفلسفة ديوى لا يتسع المقام لأكثر منها (١) ، ولكن لا بد - مهما ضاق المقام - من الإشارة إلى أثره العميق في التربية ، ولعله أن يكون أعمق آثاره وأبقاها على الزمن . ولعل أشهر مؤلفاته في هذا الباب - على كثرتها وتنوعها كتابه المسمى « الديمقراطية والتربية Democracy and Education » وقد ضمنه آراءه المشهورة في التربية ، ومضمونها أنه يجب ألا يفرض على الطفل أى شيء فرضاً ، بل يجب أن يترك لكي تنمو مواهبه وتفتق . وإنما واجب المربي أن يتأكد من معرفة ميول الطفل ونزعاته ، ومتى تأكد منها وجب عليه أن يوفر للطفل وسائل إتباع هذه الميول . وأن يمكنه من الحياة في البيئة التي تساعد على الوفاء بحاجات نفسه ورغباتها . ونظراً إلى أن المسائل العملية هي الأمور الوحيدة التي يجب أن يشتغل بها الإنسان ، فمن الواجب أن تكون المدرسة مكاناً لتعليم الدروس ، بل يجب أن تكون صورة أخرى لحياة المنزل والمجتمع ،

(١) آراء ديوى الفلسفية موضحة في كتابه The Reconstruction of Philosophy

يتعلم فيها الطفل المسائل المتصلة بتلك الحياة . وبعبارة أخرى يجب ألا تكون المدرسة بمعزل عن المجتمع ، بل يجب أن تساعد بطريقة مباشرة في حل مشاكله ؛ وعلى الرغم مما نالته آراء ديوى في التربية من الانتشار والذيعوع – ولعلها كانت في الأصل مجرد صرخة احتجاج على الإسراف في التلقين والتحفيز ، والبرامج المثقلة بالمعلومات – فإن أتباع ديوى قد أسرفوا في الاتجاه الآخر ، وجعلوا من مذهبه في التربية حجة لإهمال التعليم ، حتى الضرورى منه .

هـ – المذهب التحليلى

واضح مما تقدم أن كلا من جيمس وهويتهد وديوى ، قد بنوا مذهبهم في الفلسفة على أنقاض المذهب الفكرى – أو الايديالى . وكلهم بدأ حياته الفلسفية بهجمة عنيفة على بعض نواحي تلك الفلسفة . ولكنهم لم يعترضوا على كل شيء ، اشتملت عليه . وتسامحوا عن بعض ما جاء فيها . أما المدرسة التى عارضت المذهب الفكرى في كل نواحيه ، فهى النسابة بالفلسفة التحليلية الواقعية realism ، التى كمل تكوينها بظهور مؤلف مشترك وضعه ستة من دعائها سنة ١٩١٢ وعنوانه المذهب الواقعى الجديد : The New Realism وكان على رأس هذه الفئة الأستاذ رالف برى Ralph Perry من جامعة هارفرد . وهؤلاء الواقعيون – على الرغم من أن كثيراً منهم مؤمن بالإله – يذهبون في فلسفتهم وجهة طبيعية أو مادية ، فى نظرتهم إلى الإنسان وعلاقته بالعالم المادى . وأنكر المتطرفون منهم وجود الروح ، وزعموا أن كل الظواهر النفسية جزء من الانفعالات الطبيعية .

وهؤلاء الواقعيون أشد تأثراً بالعلم من ديوى نفسه ، وكانوا بوجه خاص يعتمدون على التقدم الحديث فى علم المنطق والرياضيات ، فى طريقة تفكيرهم . وقد أصدروا نداء إلى الفلاسفة يدعونهم فيه إلى نبذ كل شيء لا ينطبق على التفكير المنطقى السليم ؛ وعلى الأخص تلك العادة الشائعة التى تلجأ إلى الشعور والإلهام فى حل بعض المشاكل الفلسفية . ورأوا من الضرورى مراعاة الدقة المتناهية فى استخدام الكلمات ، والابتعاد عن العبارات الفصيحة الحلابة ، والاعتماد على تأدية المعنى الصحيح ، حتى لا يكون هنالك أدنى شك فى تفهم المقصود . وفوق

كل شيء لا بد من اتباع الأسلوب التحليلي ، الذي يقضي بتحليل كل مركب إلى العناصر والأجزاء التي يتألف منها ، لا بقصد تشريح الكل وتقطيعه ، بل لحسن فهم طبيعة الأجزاء والصلات التي تربطها بعضها ببعض من جهة ، وبالكل الذي يتألف منها من جهة أخرى .

لقيت الحركة التحليلية دعاءً وأنصاراً في جميع معاهد العلم في الولايات المتحدة ، حتى ليصعب أن نحصى عددهم أو نذكرهم هنا جميعاً ، ولكن واحداً منهم يستحق هنا تنويهاً خاصاً ، لا لأنه من أعلام الفلسفة الواقعية فحسب ، بل لأنه تعدد أن يكتب رسائله الفلسفية في أسلوب نثرى بديع . هذا الفيلسوف الأديب هو جورج سانتاينا *George Santayana* ذلك الرجل المنحدر من أسرة إسبانية عريقة في الحسب والنسب ، ثم قضت ظروف أسرته بعد ولادته في إسبانيا ، أن ينشأ ويترعرع ويتقن في مدينة بسطن . ثم يتولى تدريس الفلسفة في جامعة هارفرد إلى أن هجر أمريكا نهائياً في عام ١٩١٢ ، ومع أن فلسفته لها ميزات تجعلها فريدة في بابها بالنسبة إلى سائر الواقعيين ، غير أن جوهرها لا يكاد يختلف عن المذهب الواقعي كثيراً^(١) .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن المذهب الواقعي ، بزعمه التحليلية كان له تأثير كبير في الأدب ، وذلك بتوجيه النقد الأدبي وجهة جديدة ، تبحث بحثاً علمياً عن السر الكامن وراء الألفاظ والعبارات وتأثيرها في النفس . ولا عجب والحالة هذه أن قادة النهضة الجديدة في النقد الأدبي أمثال ريتشاردس *I.A. Richards* كانوا أيضاً من المشتغلين بالفلسفة الواقعية^(٢) .

هذه الخلاصة المقتضبة عن الاتجاهات الفلسفية في أمريكا في القرن العشرين ترينا مبلغ نشاط الحركة الفلسفية ، وكيف شغلت عدداً كبيراً من الأدباء

(١) أهم مؤلفات سانتاينا هي كتاب (عالم الواقع *Realms of Reality*) في أربعة أجزاء
(٢) بدأ ريتشاردس حياته في كبرج . ثم انتقل إلى أمريكا حيث أخرج معظم مؤلفاته في النقد الأدبي وأشهرها (*The Meaning of Meaning*) (1923) ثم *Practical Criticism* (1924) وأخيراً كتابه الثالث *The Principles of Literary Criticism* (1929)

والمفكرين ؛ فأصبحت المؤلفات الفلسفية ، على الرغم من عموض البحث أحياناً ، تحتل مكاناً واضحاً فى الإنتاج الفكرى . ولها مكانها الواضح فى النثر الفنى ، الذى يمتاز فى كثير من الأحيان بجمال الأسلوب . وللفلسفة أيضاً أثر آخر فى الأدب وهو أن مذاهبها المختلفة قد أثرت فى الكتاب ، حتى مؤلفى القصص والشعر ، وإن لم يكتبوا شيئاً من النثر غير القصصى .

— ٢ —

الصحنى الأديب

بقلم جيمس جراى

من الجائز أن تكون عادات الصحنى وأساليبه فى الكتابة مختلفة بعض الاختلاف عن عادات الأديب المحترف . ومن الجائز أيضاً أن الصحنى إذا جلس ليؤلف كتاباً ، أخضع قلمه لمؤثرات يرى أنها تمثل التقاليد الماثورة ، فى الكتابة الأدبية فيسمح لنفسه بالتزام أساليب أرفع ، وتعبيرات أدق ، مما يلتزمه فى مقالاته التى يكتبها لخريدته أو مجلته ولا شك أنه يدرك أيضاً أنه فى مؤلفاته الأدبية يتناول موضوعات أعمق ، وأبقى على الزمن من الموضوعات العابرة ، التى كثيراً ما يضطر لكتابتها لخريدته أو مجلته . غير أن الصحنى المتدرب قد اكتسب بحكم مهنته عادات فى التأليف ، تجعل لكتابته حين يتناول موضوعاً من التاريخ أو سيرة بعض الرجال أو النقد أو تجارب الحياة ، مزايا قلما تتاح لغيره مثل وضوح الأسلوب ، وتجنب الإطالة ، والإقناع . فن هذه الناحية كان للصحنى أثر فى النثر الفنى لا سبيل إلى نكرانه .

وهكذا أثرت حرفة الصحافة فى أسلوب الكاتب الصحنى حين يتناول قلم الأديب لكى يؤلف كتاباً ؛ ولكنها لم تؤثر فى أسلوبه فقط بل أثرت أيضاً فى اختياره للموضوع الذى يؤلف فيه ؛ فان أهم موضوع يعنى به الصحنى فى حرفته هو أمريكا : سواء من ناحية ماضيها الذى يساعد على فهم حاضرها ، أو علاقتها الخارجية ، التى توجه سياستها وكثيراً من نشاطها .

— ١ —

فى بداية القرن العشرين سرت فى نفوس طائفة من الكتاب رغبة شديدة

فى تسجيل ما يعرفونه عن بلادهم . وكان معظم هؤلاء الكتاب من الصحفيين الأدباء ، لم تسبق لهم كتابة فى القصص أو الشعر أو المسرحيات أو الفلسفة ، وتعوزهم التجربة الفنية التى تمرس بها هؤلاء . فكان اعتمادهم على قوة الملاحظة ، وروح الفكاهة ، وصدق الفراسة ، لكى يجعلوا من مجهودهم فى تأليف سفر مشترك عن الحياة فى أمريكا كتاباً حياً ، يكشف للأمة ما نخفى من شئونها ، وقد اشترك مع هؤلاء الكتاب أحياناً بعض الفلاسفة أو الأدباء المحترفين . ولكن الذين حملوا معظم العبء كانوا رجالاً ونساء حرقهم الأساسية أن يكتبوا للجرائد والمجلات .

وفى هذا الموضوع المشترك الضخم اتجه كل كاتب وجهته الخاصة ، فتعددت وجوه النشاط فى غضون نصف هذا القرن . فن الكتاب من أخذ ينبش تحت أديم الثرى ، ليطلع على ما نخفى من العيوب التى لا تراها العيون ؛ ومنهم من جعل يبحث فى زوايا القطر عن المستغلين للموارد البشرية أو المادية . ومنهم من اتجه إلى إسقاط المتزعمين بالباطل عن مراتب الزعامة ، ومنهم من أخذ يفضح مخازى عصر الحجاز وما اشتمل عليه من السخافات . ومنهم متكهنون أخذوا يحذرون الأمة مما يتهدد المجتمع الأمريكى من عوامل الانهيار . وفى أثناء الأزمة الاقتصادية عام ١٩٣٠ وما بعدها اتجه الكتاب إلى بحث العلل ورسم العلاج — وبعد أن شاهدوا حربين عالميتين ، انفسح أمامهم مجال للكتابة فى الصلات بين أمريكا والعالم الخارجى ، بعد أن خرجت عن عزلتها ، وهيبات أن تعود إليها .

— ب —

وكان الكتاب المهاجرون أول من تحدث عن أمريكا والقيم التى تسودها . وكانت نزعتهم تتجه إلى الإصلاح والتفاوت . ومن أول الكتاب فى هذا الباب يعقوب ريس الذى نشر فى ١٩٠١ كتابه *Jacob Riis: The Making of an American* وصف فيه بأسلوب مرح كيف يهرب المرء من الفقر والجوع ومن ضرب الشرطة ، إلى أن يصبح صديقاً للرئيس ثيودور روزفلت . وقد كشف فى كتابه هذا عن أحوال تتطلب الإصلاح الاجتماعى ، وعن جهود المؤلف فى تحقيق هذا الإصلاح

وقد كان لنقده المر لشوارع نيويورك وما بها من الأقدار أثر قوى فى تحريك عدد من الكتاب نحو الإصلاح ، ومن أشهر هؤلاء لنكولن ستغنسن الذى نشر فى سنة ١٩٠٤ كتابه « عار المدن : The Shame of Cities » ، وحمل حملة قوية على قادة المجتمع . وعلى الناخبين الذين سمحوا بأن يتولى شئونهم أمثال هؤلاء القمادة .

وفى أوائل القرن ظهر كاتبان عنياً أيضاً بالمشاكل الاجتماعية الكبيرة ، وهما إيدا تاربل Ida Tarbell وراى ستانرد بيكر Ray Stannard Baker . فقد عالجت مس تاربل مسألة الاحتكار الاقتصادى لموارد الثروة وخصت بحملتها شركة ستاندردى فى كتاب عنوانه The History of the Standard Oil Company وقد نشرته فى عام ١٩٠٤ وأثر كتابها فى نفس جون د. روكيفلر ، فكان يقول عنها : « هذه المرأة المضللة » . وقد سبق لها قبل ذلك أن ألقت كتاباً فى حياة إبراهيم لنكولن (فى سنة ١٩٠٠) صححت فيه كثيراً من الآراء الخاطئة عن سيرة الزعيم فى أول حياته . وفى عام ١٩٢٥ ألقت كتاباً فى سيرة ألبرت جيرى صاحب مصانع الصلب . ولم تجد أى تناقض فى هذا مع نقدها لشركة البترول . وأخرجت بعد ذلك كتاباً عن تاريخ حياتها فى عام ١٩٣٩ .

أما راى ستانرد بيكر فبدأ جهوده الإصلاحية بكتاب عنوانه « على أثر خط اللون Following the Color Line » وخط اللون هو الذى يفصل بين السود والبيض . وقد كان كتابه دعاية قوية للمساواة بين الأجناس وقد صحب ولسن إلى مؤتمر فرسايل بعد الحرب العالمية الأولى ، ونشر بعد ذلك كتاباً عن سيرته Woodrow Wilson: Life and Letters وكان له فوق ذلك سلسلة من المؤلفات يصف بها الحياة الأمريكية فى أسلوب شيق جذاب .

إذا انتقلنا من نيويورك إلى تشيكاغو ألفينا نهضة مماثلة بين رجال الصحافة فى مستهل القرن العشرين ، وكان على رأس هذه النهضة جماعة من الكتاب ينشرون مقالاتهم فى صحف تشيكاغو ، وينتهزون الفرصة لإخراج كتاب يركزون فيه آراءهم وتجاربهم . ومن أشهر أعضاء هذا الرعيل الأول الكاتب فنلى بيتر دن Finley Peter Dunne وقد خطر له أن يسجل آراءه على لسان شخصية مبتكرة ، فاخترع شخصاً سماه مستر دولى Dooley ووصفه بأنه مهاجر

إيرلندى يتكلم بلهجة بلاده ، وجعل من أحاديثه وسيلة لبحث الشؤون الدولية أحياناً ، ولتوجيه النقد اللاذع للمجتمع أحياناً ، فى أمريكا وفى غيرها من الأقطار ، وقد ضمن هذه الآراء كتابيه المعروفين : « مستردولى فى الحرب والسلم » (١٨٩٨) و « مشاهدات مستردولى » (١٩٠٢) .

فى عام ١٨٩٠ ظهرت فى أمريكا مجلة جديدة عنوانها : The Smart Set (الطبقة الراقية) وقد تولى رياسة التحرير فيها كاتب وكاتبة من الطراز الأول وهما هـ. ل. منكن ، وجين ناثان H.L. Mencken and Jean Nathan وكان من أهم ماتخصصت فيه هذه المجلة التعريف بكبار الكتاب العالميين مثل دانتر بوب الإيطالى وغيره . وكذلك تخصصت فى التعريف بكتاب أعلام أمريكيين مثل الشاعر والتر وتمان Walt Whitman بعد أن كاد الجمهور ينسى ذكرهم . وفتحت المجلة صدرها للكتاب الناشئين المجددين . وقد جعل الكاتبان من سياستهما الهجوم المستمر على الثقافة الأمريكية ، والتنديد بها ، والغض من كل شخص نال الشهرة من غير جدارة واستحقاق . وفتح هذا الباب مجالاً لكل كاتب أراد أن يشترك فى هذه الحملة الشعواء على أمريكا والأمريكيين ، ولئن أراد أن يرد أو يدافع عن بعض التقاليد أو الرجال الذين أغير عليهم من غير رحمة ولا شفقة . وقد اشتهر فى ذلك الوقت لفظ جديد فى اللغة الأمريكية وهو Debunk ولعل أفضل ترجمة له « تحطيم الأصنام » . وقد وصف رئيس التحرير منكن بأنه رئيس هذه العصابة ، حتى إنه عندما أخرج كتابه فى سيرة الجنرال جرانت ١٩٢٨ رأى الكثير أنه أراد به أن ينزل القائد الذى تزعم الجانب الشمالى فى الحرب الأهلية : عن عرشه ، مع أن الكتاب لا يعدو أن يكون سيرة جيدة التأليف ، وأدنى إلى التاريخ الصحيح مما سبقها من سير لهذا القائد ؛ وتمتاز بتوخى الحقيقة وتجنب التأثر بالعاطفة . وقد حذا حذوه فى ذلك الكاتب روبرت هيوز Rupert Hughes فى كتابه عن سيرة جورج واشنطن . فأخرج للعالم أول سيرة تاريخية ، لا تنظم البطل ، ولكنها بعيدة عن الإسراف فى التمجيد .

ولم يكن بد من أن تثير هذه الحملة على كل شىء أمريكى : نوعاً من رد الفعل ، وفى عام ١٩١٦ ظهر لمارك توين كتاب عنوانه الغريب المجهول :

The Mysterious Stranger أظهر فيه هذا الكاتب الشهير ما هو حسن في الخلق الأمريكى . ولا شك أن دخول أمريكا الحرب العالمية ، والنصيب الكبير الذى اضطلعت به فيها ، كان له أثره أيضاً في تخفيف تلك الحملات ، وانصراف الكتاب إلى موضوعات أخرى ، وبرغم ذلك ظل موضوع نقد أمريكا والأمريكيين تارة في هدوء واعتدال ، وطوراً في عنف وإسراف ، من الموضوعات التى تجرد لها الأقلام في كل وقت . وكان هذا الهجوم المطرد يقابله من آن لآن دفاع معتدل ، وقلما كان الدفاع ممتازاً بالعنف والتهور ، وعلى الأخص في أيدي الكتاب المبرزين . وكثيراً ما كان النقد في مختلف صورته وأشكاله يجيء في أثناء سرد المؤلف لسيرة حياته . ولذلك امتلأت الخمسون عاماً الأخيرة بهذا الضرب من التأليف ، سواء وصف الكتاب بأنه سيرة المؤلف Autobiography أو كان له عنوان آخر .

ويبدو أن تناول الكتاب أمريكا والأمريكيين بالنقد أو المدح ، قد دفع طائفة من الكتاب إلى معالجة التأليف في مناظر أمريكا الطبيعية . فألف بروز Burroughs كتابه « تحت شجرة التفاح » سنة ١٩١٦ وألف تلميذه دالس شارب Dallas Lore Sharp كتاب : « تلال هنجهام » The Hills of Hingham وكتب الروائى هولس W.D. Howells كتابه : « سنوات شبابى » Years of my youth ودخل الميدان أيضاً كاتب روائى كبير وهو ثيودور دريزر وألف كتاباً بعنوانه إجازة هوزير Hoosier Holiday وصف فيها رحلة إلى ولاية إنديانا ، حيث قضى شباباً غير سعيد ، وحيث يكافح الناس الطبيعة القاسية .

واشتهر قبل الحرب العالمية من كتاب المقالات البارعين سامويل كروذرز Samuel Crothers فنشر في ١٩١٢ مجموعة مقالات بعنوان « حديث الناس : Humanly Speaking » ثم شفعتها بمجموعة أخرى في عام ١٩١٦ ، وقد نحي فيها نحو شارلز لامب كاتب المقالات الإنجليزى المشهور . ونشرت الكاتبة أجنس ربلير Agnes Repplier ذات النزعة الاستقرائية مجموعة مقالات عنوانها : « تيارات متعارضة » ١٩١٦ تنقد فيها المجتمع ، ومظاهر الانحلال التى أخذت - في نظرها - تتجلى فيه . ومن أشهر كتاب المقالات في هذه الفترة لوجان برسال م - ١٦ دراسات

سميث Logan Pearsall Smith الذى عاش شطراً كبيراً من حياته فى إنجلترا مثل الروائى هنرى جيمس ونشر أول مجموعة من مقالاته فى سنة ١٩٠٢ وعنوانها: «أشياء نافية : Trivia» ثم شفعتها بمجموعة أخرى فى عام ١٩٢١ ؛ وكل مجموعة تشتمل على مقالات قصيرة كل منها فى نحو مائة كلمة فى أسلوب مركز بليغ . ثم نشر بعد ذلك فى عام ١٩٣٨ سيرة حياته ووصف هجرته إلى الجزر البريطانية .

تعتبر نهاية الحرب العالمية فى عام ١٩١٨ بمثابة الخاتمة لمرحلة من مراحل الأدب الأمريكى الحديث . وقد امتازت هذه النهاية بقلّة الإنتاج الأدبى ، لأن الأقلام كانت منصرفة لشئون الحرب من جهة ، ولأن التطور الحديد للمجتمع لم يتمثل بعد فى روح الكتاب وإنتاجهم . ومع ذلك فقد ظهرت فى هذه الفترة بضعة مؤلفات ذات خطر ، وبعضها من أرقى ما أخرجته الأدب الحديث فى النثر غير القصصى . وحسبنا هنا أن نشير أولاً إلى كتابين من تأليف هملين جارلند Hamlin Garland ، الكاتب الصحفى البارع الذى نشأ فى وسكنسن ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه الولاية ميداناً للإنشاء والتعمير ، والجهود الجبارة التى تبذل ، والصعوبات الجمة التى لا بد من التغلب عليها . وعلى الرغم من أن جارلند قاسى شظف العيش فى صباه فى هذه الولاية ، فانه أخذ يحن إليها وهو فى نيويورك فوصف الإقليم فى كتابين : ابن الإقليم الأوسط (١٩١٧) وبنت الإقليم الأوسط (١٩٢١) . وفى هذا الوقت أيضاً (١٩١٨) ظهر كتاب هنرى آدمز المعروف : تربية هنرى آدمز The Education of Henry Adams وهو يعد من المؤلفات الأدبية الرفيعة فى نصف القرن الماضى . والكتاب نوع من السيرة الشخصية للمؤلف ، وإن كان ينزع فى كثير من فصوله إلى نقد أساليب التربية السائدة فى أمريكا . وقد أعلن فيه المؤلف أن قد آن الأوان لأن يعاد النظر فى جميع العناصر التى تدخل فى تكوين وتنشئة كل فرد . وعلى أثر نشر هذا الكتاب ظهر كتاب آخر مؤلفه فان وك بروكس Van Wych Brooks عنوانه «الأدب والقيادة : Letters and Leadership» ، أعلن فيه التحدى الآتى للأمريكيين : «إننا نريد أن نقوم بنصيبنا فى الحياة العالمية الراقية ، ولكننا عاجزون عن ذلك لأننا ليست لنا حياة رفيعة خاصة بنا» .

ويعد كتاب آدمز وبروكس من الأمور النادرة في وقت اتجه فيه الكتاب إلى الحرب ونتائجها وأثرها في أمريكا ، فكتب ثيودور روزفلت كتابه : المغامرة الكبرى : ودراسات في الوطنية الأمريكية في الوقت الحاضر . ونشر إليهورت Elihu Root كتابه المعروف : « الولايات المتحدة والحرب » . وألف مارك سلفان Mark Sullivan كتاباً عن خطر القوة البحرية عنوانه « استيقظ أمريكا Wake up America » ولا يكاد المرء يعثر على كتاب في النثر غير القصصي سوى مؤلف واحد يدعى « وادي الديمقراطية : The Valley of Democracy » للكاتب الروائي مرويت نيكلسن .

ولم تدم تلك الفترة المحدبة في نهاية الحرب العالمية طويلاً ؛ فان الجيمل الحديد الذي ازداد نضجاً بعد تلك التجربة القاسية ، كان منفتح الذهن لكل فكر جديد ، متعطشاً للمطالعة الجدية . فلم يلبث أن ظهرت طائفة من الكتاب حوالي عام ١٩٢٠ تناول موضوعات مختلفة من الحياة الأمريكية . فنشر ثيودور دريزر كتابه : « هي رب أدب دب : Hey Rub-a-Dub-Dub » يصف فيه الشعب الأمريكي وصفاً ينزع إلى التشاؤم ؛ ونشر « وايم دبوا : William Du Bois » أبرع كاتب زنجي في أمريكا ، وأكثرهم اعتدالاً كتابه : « داركووتر : Darkwater » يدافع فيه بلباقة عن حقوق لم تستطع الديمقراطية أن تحفظها لأربابها . وظهرت في الوقت نفسه طلائع المؤلفين الذين استطاعوا أن يدركوا أن أمريكا قد خرجت عن عزلتها القديمة ، ولا بد لها أن تحتل مكانها بين دول العالم . وبدأ هذا واضحاً في كتاب جورج كرييل George Creel عن الرئيس ولسن : وعنوانه « الحرب والعالم وولسن » .

وفي عام ١٩٢٠ ظهر كاتب جديد وهو كلارنس داي ؛ وبدأ حياته الأدبية بكتاب لاذع الأسلوب عنوانه : « هذا العالم القردى This Simian World » يقول فيه إنه قد يكون هنالك أمل في مستقبل العالم لو كان سكانه خلقاً أقل شياً بالقرود من هذه الكائنات البشرية . وقد نشرت كاتبة أمريكية : كاثرين جيرولد في الوقت نفسه كتاباً أكثر هدوءاً وإن كان يعالج الموضوع نفسه عنوانه « الشكول

والأخلاق Modes and Morals» أبانت فيه أن الأمريكيين يعوزهم الوقار والاحتشام .

وقد تناول القراء هذه الكتب بشغف ، لشدة رغبتهم في أن يلتموا بشئون بلادهم ، وأن يطلعوا على أية صورة يرسمها كتابها لأية ناحية من نواحي الحياة فيها . ولم تلبث أن ظهرت مؤلفات عديدة في العشرة الأعوام التالية للحرب العالمية الأولى استجابة لهذه الرغبة ؛ فنشرت الكاتبة كونستانس لندسى سكينر Skinner كتابين عن الحياة في بعض الولايات الغربية أولهما : « مغامرات في أوريجون » ، والثانى « رواد الجنوب الغربى : Pioneers of the South-West »

وتخصص الكاتب الضليع جيمس ترساو آدمز James Truslow Adams في إخراج مؤلفات يعالج فيها نواحي هامة من تاريخ أمريكا في أسلوب سهل ، فأخرج على التوالي « تأسيس إنجلترا الجديدة » و « إنجلترا الجديدة الثائرة » (١٦٩١ - ١٧٧٦) . و « إنجلترا الجديدة تحت النظام الجمهورى » (١٧٧٦ - ١٨٥٠) ، أبرز فيها التطورات الهامة في تاريخ الولايات المتحدة . ثم أتبع ذلك بسلسلة أخرى عن آراء الزعماء الأوائل في تاريخ أمريكا : تحت عنوان : « مبادئ هاملتن » و « مبادئ جفرسن » و « أسرة آدمز » . وأخرج كذلك كتاباً أخرى قيمة من أعظمها كتاب « قصة أمريكا : The Epic of America » في سنة ١٩٣١ . و « تقدم الديمقراطية : The March of Democracy » (١٩٣٢ - ١٩٣٣) .

وكان آدمز في كتبه هذه حريصاً على أن يظهر النواحي الطيبة ونواحي المجد في تاريخ أمريكا ، والمبادئ السليمة التي يتركز عليها المجتمع الأمريكى . ولكي تتعادل الكفتان نرى كتاباً آخرين مثل ثيودور دريزلر يحمل بأسلوبه المر اللاذع على حضارة الصناعة والمال التي تنغمس فيها أمريكا ، وضمن حملاته الجديدة كتاباً تصف تجاربه أو تاريخ حياته . فأخرج في هذا الموضوع كتابه المسمى « كتاب عن نفسى A Book about Myself » في سنة ١٩٢٢ ؛ وكتاب « لون مدينة عظيمة The Color of a Greet City » - في العام التالى

واتجه كتاب السير إلى التأليف في حياة أعلام أمريكا : فنشر وليم ألن هويت في عام ١٩٢٤ كتاباً عن « وودروولسن : عصره وعنه Woodrow wilson

« His Times and His Tasks » ، وأخرج في العام التالي سيرة الرئيس كالفرن كوليدج ونشر كلود بورز Bowers كتابين عن كل من الرئيسين هاملتن وجيفرسن في سنة ١٩٢٥ . أما ألن نفنز Alan Nevins فاتجه في السير وجهة أخرى بأن ألف كتاباً في حياة « فرمنت » ، مغامر الأقاليم الغربية الأكبر Frémont, The West's Greetest Adventurer^(١) ولكن أعظم مجهود في كتابة السير على هذا النحو هو بلاشك كتاب كارل سان برج Sandburg عن حياة إبراهيم لنكلن. والذي ظهر منه المجلدان الأولان في عام ١٩٢٦ ، فنال تقديراً كبيراً من القارئ غير المختص ، ومن المؤرخ المحترف لدقة البحوث التي قام بها المؤلف ، ولاعتداله في الحكم .

في عام ١٩٢٣ أخذ الكاتب الصحفي مارك سليفان يخرج مشروعاً جريئاً لكي يضع أمام القراء صورة تفصيلية واضحة للحضارة الأمريكية في مختلف أشكالها . فنشر كتابه « زماننا Our Times » وأتمه في ستة مجلدات شرح فيها كل ناحية من نواحي الحياة الأمريكية في الربع الأول من القرن العشرين . عالج فيها كل موضوع من المسائل السياسية إلى ملابس النساء . وقد صادف الكتاب هوى في نفوس أبناء الجيل وكان له من أسلوبه وروحه ما جعله مقبولاً لدى القراء ، متمشياً مع روح العصر وذوقه .

وهكذا مضى الكتاب في الأعوام العشرة التالية لسنة ١٩٢٠ يخرجون مختلف الكتب في نقد أمريكا أو مدحها في أسلوب ينزع إلى السخرية تارة وإلى الاشفاق تارة أخرى . ومع ذلك فقلما ظهر لمؤلف في هذه الفترة كتاب ينذر بالأزمة الاقتصادية التي جاءت في نهايتها . وفي نفس عام ١٩٢٩ ، الذي تداعى فيه صرح وال ستريت وانهدت أركانه . أخرج جيمس ترسلو آدمز كتاباً يتغنى فيه بفضائل حضارة أمريكا المالية والتجارية عنوانه : « حضارتنا المادية Our Business Civilisation » . كما امتازت تلك السنة بمحصول وافر للأدباء الصحفيين ، فأخرج هربرت أسبورى تاريخ حياة « كارى ناشن » ، ونشر كلود بورز كتاباً عن حالة الارتباك التي سادت أمريكا بعد الثورة عنوانه : « العصر الأليم :

(١) فريمونت رحالة وكشاف ومغامر أمريكي من أصل فرنسي (توفي عام ١٨٩٠) وكان له فضل ارتياد مساحات هائلة من الولايات غرب المسيسيبي إلى المحيط الهادى .

«The Tragic Era» وظهر لأول مرة الكاتب ماركويس جيمس Marquis James بكتاب عن حياة سام هوستن عنوانه The Raven ، وأخرج والتر فرانسس هويت كتاباً عن اضطهاد السود فى أمريكا ، دعا فيه إلى التمسك بروح التسامح ، ويندد فيه بالقسوة العنصرية ؛ عنوانه «الحبل والعصا : Rope & Faggot». ونشر موريس هندوس كتاباً عنوانه : «الإنسانية تنتزع من جذورها Humanity Uprooted» عالج فيه موضوع الفلاحين فى روسيا السوفياتية ، حين انتزعوا من مزارعهم وحشدوا فى المزارع الحكومية . فكان كتابه من المؤلفات التى تناولت موضوعاً هاماً من الشؤون الدولية ، سبق به غيره من المؤلفين فى هذا الميدان . وأعل أهم كتاب ظهر فى تلك السنة كتاب والدو فرانك : «إعادة الكشف عن أمريكا The Re-Discovery of America» ومع أن الموضوع قديم فقد عالجه بأسلوب طريف وطريقة جديدة . فنظر إلى أمريكا بعين الفاحص الذكى ، الذى يطيل التأمل ، ويكاد يتنبأ بالمستقبل ، هذا إلى حسن عرض وجمال أسلوب ألفناه فى مؤلفاته الأخرى ولكنه أكثر ظهوراً فى هذا الكتاب .

— د —

امتازت السنوات العشر التالية (١٩٣٠ وما بعدها) بالأزمة المالية التى أظلت هذه الفترة فى مبدئها ، وبالسحب التى غشيت السلام العالمى فى نهايتها ؛ وما تقدم الحرب العالمية من انتشار النظم الدكتاتورية فى ألمانيا وإسبانيا وغيرها . ولم يكن بد من أن يكون لهذا كله أو لبعضه أثر فى المؤلفات التى ظهرت . ولكن هذه الموضوعات لم تطغ على أقلام الكتاب ، الذين استمروا فى معالجة الموضوعات القديمة الخاصة ببلادهم وحياتهم ، ومن الكتب الممتازة التى ظهرت فى عام ١٩٣١ ثلاثة كتب للأدباء السيدة مارى روبرتس رينهارت ، وفرديريك لويس ألن ، وكونستانس رورك Constance Rourke — الأولى عبارة عن سيرة حياة الكاتبة My Life كانت فيه أكثر إبداعاً منها فى مؤلفاتها الروائية ، سردت فيه بأمانة تاريخ حياتها ووصفت البيئة الأمريكية بمزاياها وعيوبها ، والكتاب الثانى لفرديريك ألن وعنوانه « بالأمس فقط Only Yesterday » سرد فيه قصة الأعوام السابقة وأن أمريكا تستطيع أن تستفيد من تجاربها وأخطائها الماضية ، والكتاب

الثالث لكونستانس رورك وعنوانه « الفكاهة الأمريكية American Humour » يشرح بعض نواحي الخلق الأمريكي . ونلاحظ أن النقد الهدام لكل شيء أمريكي أو الزعم بأن أمريكا عالة على أوروبا ، لم يعد هو النغمة السائدة في هذه الفترة ؛ بل أخذ الكتاب ينصفون أمريكا وأحياناً يغفلون في ذلك . كما فعل برنار دى فوتو B. de Voto في كتابه : « أمريكا : بلاد مارك توين Mark Twain's America » ومن الكتاب الذين نزعوا هذه النزعة هربرت أجار H. Agar ، نشر في سنة ١٩٣٠ كتابه « سألتزم مكاني I'll take my Stand » يعالج فيه ضرباً من المسائل الاقتصادية والسياسية والتاريخية ، ثم كتابه الثاني (سنة ١٩٣٤) « اختيار الشعب The People's Choice » يحذره من أن بعض سفهاء الخطباء قد يصلون في ظل الحكم الديمقراطي إلى مكان ليسوا جديرين به .

وفي عام ١٩٣٤ - ولم يكده يمضي على الحكم النازي في ألمانيا أكثر من عام - نشر الصحفي الأديب هاملتون ف. آرمسترنج كتاباً بعنوانه « دولة هتلر Hitler's Reich » وخلص من بحثه هذا إلى أن أمريكا لا مفر لها من أن تعيش في العالم الفسح ، وأن العلم بالشئون الدولية مما لا يستغنى عنه بلد ديمقراطي .

في منتصف السنوات العشر التي نحن بصدها بدت ظاهرة جديدة في النشر الأمريكي غير القصصي ، وهي التي صارت تدعى فيما بعد باسم « الإقليمية Regionalism » ، ومن المعروف أن الولايات المتحدة وعددها ثمان وأربعون بينها اختلاف في المواقع والمناظر والتقاليد والتاريخ وغير ذلك . وعلى الرغم من شدة إخلاص أبناء كل ولاية لولايتهم - بل وتعصبهم لها - فإن بالأمريكي شغفاً للاطلاع على أحوال الولايات الأخرى ، ومن الطبيعي أن يكون الكاتب عن كل ولاية أو إقليم أو بلدة هو عادة من أبناء الجهة التي يكتب عنها ؛ مما يزيده حماسة في مجهوده الأدبي . ولكن هذا ليس معناه أن القراء لأمثال هذه الكتب هم أبناء الولاية أو البلدة . لأن الشغف بمعرفة حال البلاد كلها وخصائصها وميزاتها كان عاماً بين جميع السكان .

ومن الكتب التي ظهرت في هذه الفترة تعالج هذا الموضوع كتاب كارل

كارمر C. Carmer وعنوانه «تساقط النجوم على ألباما : Stars Fell on Alabama» (١٩٣٤) . ويمتاز بأسلوبه الفكاهى الهادىء وحسن إدراك المؤلف لمزايا سكان الجنوب . وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً هائلاً ، اضطر المؤلف إلى أن يعيد الكرة بتأليف كتاب عن الإقليم الشمالى من ولاية نيويورك عنوانه « أنصت إلى طبل منفرد : Listen for a Lonesome Drum » .

وفى عام ١٩٣٤ أيضاً نشر لويس أدامك L. Adamic ، كتابه « عودة المواطن The Native's Return » يصف فيه عودته بعد زيارة لبلاده الأصلية يوجوسلافيا ، التى غادرها إلى أمريكا وهو فتى فى الخامسة عشرة من عمره ويقابل فى هذا الكتاب بين الحالة الفكرية فى العالم الحديد والقديم ، ويقرر فيه أن الطريقة المثلى هى الجمع بين مميزات كل من العالمين .

وفى هذه الآونة ظهر أيضاً كتابان من سير الأبطال نالا شهرة عظيمة : الأول من تأليف دجلاس س. فريمان عن حياة روبرت . لى قائد الجيوش الجنوبية فى الحرب الأهلية ، والثانى عن حياة الرئيس جاكسون للكاتب ماركويس جيمس ، وكلاهما يحتل مكاناً ممتازاً بين كتب السير من الناحيتين الأدبية والتاريخية .

ومن قبيل المؤلفات الخاصة بالحياة الأمريكية كتاب كلارنس داي Clarence Day ، وإن لم يكن وصفاً لإقليم أو بلدة ، ولكنه وصف لشخصية فرد يمثل المحافظة على أخلاق السلف وعاداتهم . وعنوان الكتاب « الحياة مع الوالد Life with Father » . وقد ظهر فى عام ١٩٣٥ ، وهو يعد من عيون الأدب فى الفترة السابقة للحرب الأخيرة .

وقد تحمست الكاتبة الأدبية كونستانس لندساي سكينر C.L. Skinner لموضوع التأليف الإقليمى وسلكت به طريقاً جديدة ، فرأت أن من المفيد تتبع مراحل الحضارة الأمريكية من نهر إلى نهر . وهكذا افتتحت سلسلة « أنهار أمريكا » فى سنة ١٩٣٧ . وعاونها فى ذلك عدد من الكتاب ؛ تناولوا الأنهار كبرىها مثل المسسى الأعلى تأليف والتر هافجورت Havighurot ، ونهر أركنساس للكاتب كلايد بريون دينس ، أو صغيرها مثل نهر هدس . للكاتب

كارل كارمر Carl Carmer : The Hudson

ويدهى أن يلتفت الكتاب الصحفيون إلى السحب القائمة التي تغشى السياسة الدولية ، خصوصاً بعد الحرب الإسبانية : وأن يوجهوا الأنظار للمستقبل المتجهم . فكتب ماكس لرنر Max Lerner بقوة في هذا الموضوع كتابه المعروف «تأخرنا أكثر مما نظن It is later than you think» ، وكتب لويس فيشر L. Fischer بعد أن تكشفت له حقيقة التجربة السوفياتية كتاباً عنوانه الرجال والسياسة : Ment Politics يدعو فيه الأمريكيين إلى التفكير بهدوء فيما يجب عليهم عمله في الأزمة المقبلة . ونشر جون جنتر Gunther كتاباً عن الدكتاتوريات الأوربية عنوانه « في داخل أوروبا Inside Europe » ثم نشر بعد ذلك كتاباً آخر مشابهاً عن أمريكا اللاتينية Inside Latin American

— ه —

كان للأزمة الاقتصادية التي اشتدت في أمريكا بعد عام ١٩٣٠ أثر في التأليف والمؤلفين ، خارج عن المؤلف . وهو تنظيم مشروعات في التأليف بوساطة الحكومة الأمريكية الفدرالية . فقد رأت أن يقوم الكتاب بتأليف سلاسل من نوع كتب « الأدلة » ، التي تصف بعض الجهات والأركان الأمريكية . وتولى الإشراف على تنفيذ هذا البرنامج الضخم رجال ذوو براعة نادرة مثل هرلان هاتشر Harlan Hatcher في ولاية أوهيو وليل ساكسون L. Sexon في لويزيانا . وقد أداروا هذا المشروع بهمة وبمهارة ، حتى أصبحت هذه المجلدات العديدة كتباً ذات قيمة ثابتة وأضافت إلى المجموعات الإقليمية السابقة ثروة ضخمة . وأمكن بذلك إكمال بعض السلاسل التي بدئت من قبل مثل سلسلة الأنهار ، وغيرها .

ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل هذه المجموعة وحسبنا أن نشير إلى أمثلة منها مثل : « بلد الأحرار : The Buck eye Country » تأليف هرلان هاتشر ، وبحيرة سوبريور للكاتبة جريس لى نوت Grace Lee Nute وكاليفورنيا الجنوبية تأليف كارى ماكويليامس Cary McWilliams

وثارت الحرب العالمية الثانية ، فانشر الكتاب الأمريكيون في ميادينها ،

ووراء الميادين وفي العواصم الأوربية يسجلون ما يرون وينقلون للشعب الأمريكى صورة ما يجرى فى الجانب الآخر من المحيط . وازداد إنتاجهم وتأثيرهم فى رأى العام الأمريكى ، لا بفضل رسائلهم ومقالاتهم ، بل وبالكتب التى ألفوها أيضاً وعالجوا فيها موضوع الحرب والمتحاربين ، وكانت النعمة السائدة لدى الكتاب الأمريكين هى ضرورة مساعدة المعسكر الديمقراطى ولا شك أن رأى العام الأمريكى كانت قيادته بأيدي أولئك الكتاب . فى كتابه المسمى « مفترق الطرق Two Way Passage » دعا لويس أدامك إلى أن السياسة الخارجية الوحيدة لأمريكا هى مناصرة الحرية . وأعلن هربرت أجار فى الكتاب المشترك الذى أشرف على إخراجه وعنوانه : « مدينة الديمقراطية » أن الحرية لا بد لها أن تشن حرباً مقدسة جديدة لتعيش . ونشر ماكس لرنر كتابين يدعو فيهما إلى التعاون الدولى أولهما : « الأفكار أسلحة Ideas are Weapons » . والثانى : « أفكار للعصر الجليدى Ideas for the Ice Age » . ودخل الصحفي ذو القلم الحاد: كنكر بوكر H.I. Knickerbocker الميدان بكتاب قوى عنوانه « هل الغد هتلر Is To-morrow Hitler's ? » كما دخله كاتب أديب لبق هادىء شديد التأثير وهو ليلند ستو Leland Stowe مجرداً قلمه لنصرة الديمقراطية فى كتابه « الطريق الوحيد إلى الحرية No'other Road to Freedom » ومن المقرر أن الصحفي الأديب قد امتاز فى زمن الحرب — بل وبعدها أيضاً إلى حد كبير — بإحساسه بالتبعة ، وترجيحه للمصلحة العامة ، وقد كان هذا كله سبباً فى رقى النثر غير القصصى ، بحيث أصبح منافساً قوياً للمؤلفات الروائية الخيالية .

٣ — التفكير الاجتماعى بأمرىكا فى القرن العشرين (*)

لوالتر متزجر

إن التأليف فى الموضوعات الاجتماعية بأمرىكا على كثرته وتنوعه — اتجه بوجه خاص إلى معالجة المشكلة القديمة وهى : « التنوع ، أم التجانس؟ » فأنصار التنوع يوصون بالعناية بالفرد وبأن نفسح له مجال الاختيار ، وأن نحافظ

(*) سيجد القارئ فى هذا الفصل إشارة إلى مؤلفين وإلى كتب جاء ذكرها من قبل، لأن الفلسفة كثيراً ماتمس الشؤون الاجتماعية . وكذلك السياسة والموضوعات الأخرى التى يعالجها رجال الصحافة .

على حياته وحريته وما يمتلك . كما يوصى أنصار التجانس بالاهتمام بالمجتمع ، وحماية مصالح الأمة ، وأن تقل الاختلافات بين الأفراد لمصلحة الجميع . وقد نشأت أمريكا فى صباها على تمجيد مصلحة الفرد ، وحينما تقدمت صناعاتها ونضجت حياتها الاقتصادية ظلت متمسكة بمبدأ التنوع ، ولكن النزعات المختلفة التى ظهرت فى القرن العشرين حملت الكتاب الاجتماعى فى أمريكا على أن يعيد التفكير فى هذه المشكلة وأن يتناولها بالبحث .

١ — النزعة الفردية فى الاقتصاد

لا شك أن الأمريكين فى منتصف القرن التاسع عشر كانوا مؤمنين بأن كل فرد يجب أن يترك لشأنه فى تدبير حياته ومشروعاته الاقتصادية كما يشاء دون تدخل من حكومة أو سلطان . ولكن هذا الإيمان قد لقي اعتراضاً فى نهاية القرن ، حينما تبلورت التطورات الاقتصادية وظهرت طبقة من الأغنياء من جهة ، وجيش من العاطلين من جهة أخرى ، فكان لا بد من الدفاع عن المذهب القديم حتى يثبت أنه لا يزال صالحاً للعهد الجديد .

وقد تصدى للدفاع عن المذهب القديم فى نهاية القرن أستاذ فى جامعة ييل وهو وليم جراهام سمنر W.G. Sumner ، ونشر فى نصرة ذلك المذهب كتاباً عنوانه : « ما تدين به الطبقات بعضها لبعض » (سنة ١٨٨٣) . ولم يزل هذا القسيس ، الذى تحول أستاذاً ، يتابع حملاته إلى القرن العشرين . وكان آخر مؤلفاته كتابه « مسالك الشعب Folkways » حاول فيه أن يربط بين القوانين الاقتصادية وبين العلوم الطبيعية . وأن لكل منها سنناً وقواعد لا تقبل التحول أو التبدل . فجاء مذهبه الاجتماعى أقرب إلى المذهب الجبرى عند الفلاسفة .

ولا شك أن هذا الاتجاه كان متفقاً مع النزعات التى كانت سائدة فى بداية القرن العشرين . ولكن تيارات جديدة أخذت تظهر وتثبت وجودها ، ولم يكن بد من أن تلقى صدى فى التفكير الاجتماعى .

ب — نظرية التقدم — Progressivism

«التقدم» اصطلاح لا يخلو من الغموض؛ لأنه يشير إلى الناحية السياسية تارة والناحية الاجتماعية تارة أخرى ، وكانت المظاهر السياسية متناقضة ، ولكن الحركة

الاجتماعية التي أطلق عليها هذا الاصطلاح كانت تمتاز بشيء من الوضوح والثبات . إذ كان أهم عناصرها : التربية التقدمية ، وعلم النفس التطبيقي ، والتفسير الاقتصادى للتاريخ . والمذهب العملى والآلى فى الفلسفة ؛ وكان أهم أنصارها جون ديوى ، وشارل بيرد Charles A. Beard ، وأولفر وندل هولمس الابن Oliver Wendell Holmes Jr. ، وتورشتين قبلن Thorstein Viblen .

وهؤلاء الكتاب لم ينكروا أن التنوع بين الناس أمر لا مفر منه ، بل ومرغوب فيه ، وأن كل فرد يجب أن تتاح له الفرصة لكى ينتج خير ما فى نفسه وما توهمه له مواهبه ؛ ولكنهم أظهروا أيضاً أن كل عمل يأتيه فرد له ناحية اجتماعية وله أثره فى المجتمع . والاهتمام بالفرد لا يناقض الاهتمام بالمجتمع كله .

وقد قام جون ديوى ببناء الهيكل الفلسفى للمذهب التقدمى . وشرح ذلك فى كتابه «البناء الجديد فى الفلسفة : Reconstruction in Philosophy» (سنة ١٩٢٠) وفى كتابه الفردية قديماً وحديثاً (١٩٣٠) ، أنهى باللائمة على المجتمع الأمريكى الذى يحاول أن يجعل الأفراد متجانسين فى المشرب والذوق ، وفى كتابه « الحرية والثقافة Freedom and Culture » (سنة ١٩٣٩) حمل على الدكتاتورىة الروسية لأنها تفرض التجانس بالقوة . وهكذا يبدو أن فلسفة ديوى الاجتماعية لا ترمى إلى الدفاع عن التجانس ، بل إلى إيجاد نوع من التناسق بين الفرد والمجتمع .

فى عام ١٩١٣ نشر بيرد كتابه عن التفسير الاقتصادى للدستور An Economic Interpretation of the Constitution فكان هذا بدء عهد جديد للدراسة التاريخية عامة ولدراسة الدستور الأمريكى بوجه خاص ، وقد ذكر فيه أن الدستور لم يكن من صنع الشعب كما يزعم رجال القانون ، أو من صنع الولايات كما يزعم الآخرون ، بل هو من صنع جماعة مؤتلفة مصالحها لا ترتبط بولاية من الولايات دون غيرها ، والدستور فى نظره وثيقة ذات أهمية خاصة من الوجهة الاقتصادية ، مبنى على فكرة أن حقوق الملكية الفردية سابقة لنشأة الحكومة ، ولذلك لا يجوز التعرض لها ، وقد ناقش بيرد هذا الرأى ودحضه فى كتاب آخر : « الأساس الاقتصادى للسياسة The Economic Basis of Politics » نشره

ولكنه لم ينزع في فصوله هذه نزعة ماركسية كما اتهمه البعض، ولكنه كان يحوم بلا شك حول الاشتراكية المعتدلة. وكان أهم عنصر في تأليفه رغبته في إظهار ما للعوامل الاقتصادية من الأثر العميق في الأحداث والديناميات التاريخية؛ ولعل شدة تحمسه في مؤلفاته الأولى أوهمت الناس أنه يرى أن العوامل الاقتصادية هي الكل في الكل. وهذا ما أنكره المؤلف بعد ذلك في كتابه «الجمهورية» (سنة ١٩٤٣) وفي الطبعة المتأخرة من كتابه «الأساس الاقتصادى للسياسة».

وذهب ثورستين قبلن Veblen إلى أبعد مما ذهب إليه كل من ديوى وبيرد وأخذ يحمل بقوة على طبقات الأغنياء أو «أصحاب الفراغ» وعلى نظرية التنافس في ميدان العمل. فنشر في عام ١٨٩٩ كتابه «نظرية الطبقة الفارغة: The Theory of the Leisure Class» ثم كتابه «نظرية التنافس في ميدان العمل: The Theory of Business Enterprise» (سنة ١٩٠٤)؛ ونقد في هذين الكتابين النظام الرأسمالى المتطرف نقداً لا ذعاً، وقد اتهم قبلن بأنه ينزع نزعة هدامة في كتابته، ولا شك أن تطرفه وبعده عن الاعتدال مما ساعد على نشر هذه الفكرة. غير أن هذا لم ينقص من قيمة مؤلفاته أو من أثرها في تقدم التفكير الاجتماعى في أوائل هذا القرن.

ولا بد لنا ونحن نعالج موضوع التفكير الاجتماعى أن نشير إلى التفكير التربوى، والمجهود الذى بذله في هذا السبيل كل من ديوى، وهيرى آدمز - وقد سبقت الإشارة إلى مؤلفاتهما في هذا الموضوع - فلا حاجة بنا إلى العودة للكلام عنها. وحسبنا أن نذكر أن كلا الكاتبين قد بدأ نهضة جديدة في ميدان التربية كان لها أثرها في خارج الولايات المتحدة أيضاً.

وقد أحسن عدد كبير من الكتاب التقدميين، عندما أدركتهم الحرب العالمية الأولى، أن من واجبهم أن يحملوا حملة عنيفة على الروح الحربية الجرمانية وأن يساهموا في الدعاية الوطنية، بهمة وحماسة، وأن يدعوا إلى متابعة الحرب بمنتهى الصرامة، بعد أن اشتركت فيها أمريكا، وكان هذا بوجه خاص هو الموقف الذى وقفه كل من ديوى وشارلس بيرد. وقد تعرض هؤلاء الكتاب بسبب

انتقيادهم إلى حمى الحماسة الحربية لضروب من اللوم والنقد من كتاب كانوا من قبل معجبين بهم مثل راندلف بورن R. Bourne فى كتابه « صفحات فى غير أوانها Untimely Papers »

تعرض المجتمع الأمريكى أثناء الحرب العالمية الأولى لألوان من التنظيم الاجتماعى ، فرض فيه على المجتمع أن يسلك مسلكاً واحداً ، وأن يجرى فى كثير من شئونه على وتيرة واحدة . فأصبحت حرية الفرد محدودة ، والتنوع لا يلقى تشجيعاً ، والتجانس هو القاعدة فى معظم الأمور ، ومع أن هذه الإجراءات كانت لضرورات حربية فقد خلفت وراءها آثاراً ، تبدو فى أعمال طائفة كوكاكس كلان وتعصبها الممقوت ، وإذا كانت الرقابة على النشر قد انتهت رسمياً ، فإنها خلفت العقلية التى حرمت داروين ، وحظرت شرب الخمر . والظاهر أن رجال الصناعة كانوا أيضاً يجذبون التجانس فى الذوق والمشرب ، لأن إنتاج البضائع المتشابهة من أهم أركان الصناعة الحديثة . وقد وجدت هذه الاتجاهات من يدافع عنها فى شخص الكاتب الاقتصادى توماس نكسون كارفر ، الأستاذ بجامعة هارفرد فى كتابه « الثورة الصناعية الحاضرة فى الولايات المتحدة - The Present Economic Revolution in the United States » وقد زعم فيه : « أن أمريكا قد تحررت من طغيان السلطات كما تحررت من الفاقة ، بفضل تأثير الأعمال الرأسمالية الكبيرة » .

ولم يلبث أن تصدى لهذا رأى وأنصاره عدد من الكتاب ذهبوا هم أيضاً إلى أقصى الطرف الآخر ، وطعنوا فى جميع القيم الديمقراطية ، وهم يتوهمون أن هذا التجانس الذى ينفرون منه والذى يقيد حرية الفرد ، هو من نتاج الديمقراطية ، وهى بالطبع بريئة منه ، وقد حمل لواء هذه الثورة رجال مثل هارولد ستيرنس H. Stearns الذى أشرف على إخراج كتاب مشترك ساهم فيه نحو ثلاثين كاتباً عنوانه « الحضارة فى الولايات المتحدة » . وقد أوصى فيه كل من الكتاب بتغيير شامل فى المجتمع الأمريكى ، وإن لم يتفقوا جميعاً على نوع هذا التغيير .

أما هـ . ل . منكن H.L.Menckew فكان أكثر عنفاً فى أسلوبه وتطرفاً

فى آرائه . وقد حمل على الديمقراطية حملات شديدة العنف فى كتابه « مذكرات فى الديمقراطية » . ومن الغريب أن ما يوصى به لإصلاح الحال هو تنشئة سلالات جديدة تنشئة بيولوجية طبقاً للمذهب الأوجينى ، مع اعترافه بأن هذه طريقة بطيئة ، كما هى الحالة فى استخراج سلالات من البقر أو خيل السباق .

ولعل والتر ليمان W. Lippmann كان أقل تطرفاً ، فان كل ما أوصى به هو أنه : نظراً للجهل الشائع عند العامة ، فانه يجب ألا يعرض على الهيئات الديمقراطية سوى المسائل اليسيرة ، ويجب تأليف هيئة أخرى من العلماء الاجتماعيين لتوجيه سياسة الدولة . راجع كتابه « الجمهورية الوهمية The Phantom Republic » سنة ١٩٢٥ .

ج - المنظم الاجتماعى ، وأصحاب المذاهب المتطرفة

لم تلبث الأزمة الاقتصادية أن حاقت بالولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ وما بعدها ، ولم تلبث كذلك أن ظهرت فى أوروبا نظم دكتاتورية قضت إلى درجة بعيدة على حرية الفرد . وفى هذه الظروف القاسية لم يكن بد من أن تقف حرب التأثيرين من الكتاب على الديمقراطية . وقد راع الكتاب ظهور النازية بوجه خاص ، وبطشها بخصومها . وازدياد بأسها ، فظهرت فى هذه الظروف نزعات أخرى للمؤلفين بعضها يعطف على النظام الشيوعى ، مثل لويس كورى الذى زعم أن التخلص من طغيان الرأسمالية لا يكون إلا بدكتاتورية الشعب (فى كتابه اضمحلال الرأسمالية الأمريكية ١٩٣٥)^(١) أما والتر ليمان فان حالة العالم المضطربة قد ردتة إلى تقديره للمنظم الديمقراطية ، كما يظهر ذلك فى كتابه « المجتمع الصالح » الذى نشره فى سنة ١٩٣٧ .

وفى أثناء هذه الانجاعات المتطرفة بين أقصى الشمال وأقصى اليمين ، ظهر نوع جديد من التفكير الاجتماعى ، ينحو ناحية عملية ، ويتجه نحو تنظيم المشروعات الاجتماعية الضخمة التى تفيد الملايين من الناس ، وترفع مستواهم المادى والأدى . وفى طليعة هؤلاء الكتاب : « دافيد ليلينثال David Lilienthal »

(١) Lewis Corey : Decline of American Capitalism.

الذى أشرف على مشروع نهر تنشى The Teunessee Valley Authority. ووصف هذه الفلسفة الاجتماعية العملية فى كتابه «مشروع تنشى: الديمقراطية تتقدم Tva : Democracy on the March.» ولم يكن كتابه هذا مجرد شرح لمشروع اقتصادى خطير، بل هو أيضاً شرح لفكرة اجتماعية سليمة ونقد للمذاهب المتطرف، وتأكيد بأن من الممكن أن يكون هنالك التثام بين حرية الفرد وتقوية المجتمع، وبين التنوع والملاءمة.